جدلية المثاقفة في التنظير والتطبيق

أسماء الشامسية

يناقش فيصل درّاج موضوع المثاقفة بردّه إلى تقاطعات آراء مجموعة من الفلاسفة والأنثربولوجيين منهم من يضع المثاقفة موضعَ حوار إنسانيّ متعدد فيما يرى آخرون أنّ ثنائية الخضوع والسيطرة هي مقوّم قيام الحضارات المتّسمة بالقوة مقابل الحضارات الخاضعة ما يجعل إمكانيّة الحوار مستحيلة، فضلاً عن الفريق الذي يرى أنّ ثقافة مَا من الثقافات ما لم تُقدّم نفسها كثقافة متميّزة ومختلفة فهي بلا هويّة وفقدان الهويّة يعني غياب الوعي بالفرق بين الأنا والآخر.

يعيّن درّاج مفهوم المثاقفة بأنّه مبدأ الحوار بين ثقافات متعددة ذوات عقل متعدد جاهز للمشاركة العادلة من أجل خير إنساني مشترك، واعتراف ثقافة بأخرى يُرَّد إلى منظومتين؛ الأولى "معرفية" تشرح الظواهر الإنسانية بمقولتي الصحيح والخطأ تتمثل في تاريخ العلم والمكتسبات العلميّة، الثانية "أخلاقية" تؤول الظواهر بمقولتي "الخير والشر" متمثلة في الإيمان والعقائد التي تقبل بالعلم دون أن ترى فيه حقيقة نهائية، وهذه المنظومة تظل عصية على القبول الجماعي ، إن ما يختلف فيه دراج هو انقلاب مقولتي "الخير والشر" إلى مقولتي "الأضعف والأقوى" ما يجعل المرجعية الثقافية واحديّة، وهو ما يُلغي عملية المثاقفة، وأجدني أتّفق معه في هذه المسألة وقد ضرب مثاله في محاولة فرنسة المغرب العربي، ومسح الميزات الثقافية المغربية العربية منها والأمازيغية، وأسوقُ بالمثل اجتياح الأوروبيين للقارة الأمريكيّة، وتنحية مواطنيها الأصليين من "الهنود الحُمر" كأصحاب موطن وأرض إلى عبيد وتابعين، إذن فالقول أنّ عمليّة المثاقفة يمكن أن تتم بسلميّة وبمشاركة عادلة في "الأخذ والعطاء" لا يمكن أن يكون صحيحًا كليًا فالأنثربولوجيون يُقسّمون المثاقفة إلى أنماط منها المثاقفة التلقائية والمثاقفة المفروضة والأخيرة هي ما ينطبق عليه المثالين السابقين، ويمكن أن تتحول المثاقفة المفروضة بعد مدّة من الوقت إلى مثاقفة تلقائية كما حدث مع الهنود الحُمر الذين لم يتقبّلوا بادىء الأمر توطين الأوروبيين ثقافتهم ولغتهم وديانتهم الكاثوليكية وأسلوب حياتهم بسبب من موجات الغزو الأولى وما صاحبها منْ نهب وسلب وتسخير في الأعمال الشاقة سرعانُ ما تقبّلوها إلى حدٍّ ما وانخرطوا فيها وأصبحوا جزءًا من المستعمرات الأوروبية. وإذ ينتقد درّاج آراء الفلاسفة الأوروبيين مثل هيوم وباسكال وبرنارد لويس في مقولاتهم التي تُعلي العرق الأوروبي وترى فيه "الإنسان المتفوّق" الذي يحقّ له نشر قيمه المتفوقة على القيم الأخرى وفرضها بأسلوب القوّة مُتعلّلا أنّ المثاقفة "يُفترض" أن تتأسس على تفاعل حُرّ وعادل بين الثقافات المستقلة، فأقول إنَّ قولبَة مفهوم المثاقفة نظريًا لا يشفع له أن يكون مفهومًا مثاليًا على المستوى الواقعي ولهذا السبب وحده قسّم الأنثربولوجيون المثاقفة إلى مستويات وأنماط بناءً على المعطيات الواقعيّة التي تجعل من المثاقفة موضوعًا ليس خاضعًا "للتفاعل الإنساني السلمي الحُر" وحسب، بل لممارسات التفاوت والتفاضل والشمولية لا النسبيّة، ولاصطلاحات الأمم الفضلى ذات الشرف والقوّة مقابل الأمم الدونية والخاضعة. ويتتبّع درّاج المثاقفة السويّة في الموروث الإسلامي في نموذج "البيروني" الذي درس العقائد الهنديّة برغم اختلاف الثقافتين الإسلاميّة والهندية أشد اختلاف، وفي اعتراف علماء المسلمين بأرسطو واشتداد ذروة المثاقفة حتى عصر المأمون العباسي في عمليات الترجمة ونقل المعرفة اليونانية، وأرجَع محاولات تثاقف المسلمين لسببين: أولاهُما استقلال الهويّة الإسلاميّة وإدراكها لتغايرها وتميّزها، وثانيهما الاعتراف بالآخر واحترامه دون الاستكبارعليه. وفي رأيي أنّ هذا الرأي لا يخلو من صحّة ولكنّه يُغفل جانبًا مهمًا وأساسيًا دفع المسلمين إلى مثاقفة حضارات الفُرس واليونان وهي "الحاجة الحضارية" للتبادل الثّقافي، الحاجة التي لا يمكن أن تُنمّي بها ثقافة جانبها الحضاري دون إحداث تلاقح مع ثقافة أخرى، هذا التلاقح يتمثل في "الدّمج" للمظاهر الثقافية دون "تمثّل" الهويّة الجديدة كليًا، فالعرب الماكثون لمدة غير قصيرة من الوقت في صحاري الرّبع الخالي كان لزامًا عليهم الاختيار ما بين اعترافهم بالحاجة إلى الآخر الذي طوّع بيئته من أجل خدمة العقل الإنساني أو الاحتماء حول ثقافتهم وحكرها في إطارها المكانيّ. وكانت مبادرات المسلمين من أمثال الفارابي وابن سينا والسجستاني في نقل أطروحات أرسطو ومناقشتها هي التي مهّدت لحضارة إسلاميّة جديدة ومتنوّعة عبرَ الدمج الثقافي بين العرب والفرس أولا في العصر العباسي الأول وعبر الدمج المعرفي بين العرب واليونان ثانيًا. يُفضي درّاج إلى قوله أنّ الفيلسوف محمد الغزالي كان سابقًا لديكارت في مبدأ الشّك؛ الذي حرّك روح البحث في أوروبا. كما اقتربت دراسات ابن حزم والبيروني والكندي من المنهج التجريبي قبل أن يصل إليه روجربيكون وهو ما أتّفق معه، إذ أنّ الحاجة الحضارية لثقافتين مستقلتين لا يجعل ثقافة في غنى عن الأخرى بل خلافًا لذلك يجعل التماس الحاجة للتثاقف ضروريًا.

ويندد درّاج على لسان إدوارد سعيد بالوقوع في فخ محاكاة الثقافة الأدنى - المنهزمة - للثقافة الأعلى - المنتصرة- ذلك أنّ المثاقفة لا تتم عبر قطبية واحدة تفرض فيها ثقافة نفسها على أخرى بل بوحدة المعرفة والأخلاق التي تقبل الإنسان في ذاته دون شروط أو فروق، وعبر المقال كلّه يكثر في ضرب أمثلة للفلاسفة المتعالين بثقافتهم على الثقافات الأخرى دون أن يفك شيفرة "الإحساس بالانتصار" منتقدًا بحدة بعض المجددين أمثال: رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وطه حسين الذين نزعوا إلى "محاكاة الثقافة الأقوى" محاولين تطويع تمدّن الغرب ومماثلته عند العرب. إنّ درّاج لم يتساءل عن دوافع محاكاة أفراد الحضارات التقليدية ببدهيّة طبيعية للحضارات المُعاصرة؟ ولم يتساءل عن بدهيّة استعلاء ما يُسميه "فتنة المنتصر"؟ وللوقوف عند هذا التساؤل وأسباب ذلك أميل إلى رأي الفيلسوف الإيراني داريو شايغان الذي يُحيل غياب هذا التجانس الجوهري في التجارب الحضارية المعاصرة بحيث يتحول حوار الحضارات إلى "تدمير حضارات محلية حد اختزالها في الفلكلور" يحيله بسبب الانقلاب الآتي من الغرب؛ إذ أنّ القيم الجديدة التي ولّدها التحدّي الجديد لا تمت بصلة لقيم الحضارات التقليدية التي أزيحت، فالمعرفة التأمليّة للديانات والاحترام الديني للطبيعة تُناقض قيم "الإنسان التكنولوجي" هذه الأخيرة التي لا تكترث بتأثير القيم الأولى.

ويعتبر شايغان أنّ التطور المتطرف للعقل غدا تاريخًا شاملا للجميع بمن فيهم "نحن" الذين لم نشارك في التحولات الكبرى لانتقال الفكر الغربي منذ الثورة الفرنسية وأصبح علينا مواجهتها. إذ ليس ثمّة بدائل أمام تقدم حركة العالم ولا يمكننا رفض هذا التحدي أو إغفاله خشية أن نتأخر فيصبح هذا التحدي هو المصير الوحيد الذي علينا إنجازه ومن هُنا نتجّه نحو ترقيع حالتنا الحضارية بالاقتباس من الحضارات الأخرى دون أن نعي جذور الفكر الذي نقتبس منه وفاعليته علينا، فتارةً نجدُنَا شيوعيين وتارةً أخرى وجوديين وهكذا. ويطرح شايغان رؤية تفصيلية لإيجاد حالة من التوازن بين الحضارات التقليدية والحديثة مقابل مُثاقفة درّاج بالبحث عن إمكانيّة لحوار جديد ينطلق من "الشرط الإنساني" مهمًا كانت ميوله وتوجهاته أي بجعل الإنسان "كليَّ التّوجه" تُدمج فيه كل مستويات الوعي ويتسامى بها حيث لا يصبح الإنسان هو الإنسان الصانع فقط أو الإنسان التكنولوجي فقط أو الإنسان الروحاني فقط بل "هو كُل ذلك وأكثر"، وهو ما يسميه بـ"صمت ما بعد الحوار". وإذا بدت هذه الرؤية أكثر يوتوبيًا من رؤية درّاج ففي رأيي ليس من مفرّ إلا بدفع الثقافات التقليدية نفسها نحو الحضارة وكفّها عن التّعذر بمثالية تراثها توهمًا منها "بالاكتفاء" و"التّشبع" لكونها تستقي حاضرها من ماضيها وكفى، وسيقول قائل إذَا أراد المسلمون تأسيس فكر حضاري "خاص" من جديد فما ثمّة فكر خاص بل كل ما سينتجونه مقتبس؛ لأنّ "التحوّل التاريخي الحضاري" وقعَ وانتهَى؛ فأقول إنّ مشروع المسلمين في كل مرّة يجهضه المسلمون أنفسهم؛ فالمشروع الإصلاحي الإسلامي الذي جاء به إصلاحيو القرن العشرين وتبنّى رؤى حداثية ومعاصرة أجهض تحت ذريعة "الاحتماء" بالماضي خوفًا من الدخول في العصر ظنًا منهم أنّ الاعتقاد بالأخرويات والركون للماضي يكفي للاطمئنان على الحياة، وهذا ما يجعل أي حضارة متأخرة قارّة في مكانها ما بقيَ البشر.

asmaashamsi@hotmail.com